فلم يفهما الكلام الذي قاله لهما

في حياة السيدة العذراء وعلاقتها بالسيد المسيح أسرار كثيرة عاشتها معه منذ لحظة الحبل به. والمتأمل في الكتاب المقدس قد يسرح بخياله محاولاً تصور كيف قضت العذراء كل لحظة من لحظات ثلاثة وثلاثين عاماً في معية المسيح على الأرض. كيف كانت أثناء تلك السنوات تحمله، وترضعه، وتنظر وجهه، وتتطلع في عينيه، وتحتضنه، وتقبله، وتجالسه، وتحكي معه، وتنصت إليه، وتطعمه، وتعتني به، وباختصار كيف كانت تختبر حضوره لها وحضورها له. وإن كان العقل لا يستطيع مهما فعل أن يستوعب طبيعة تلك العلاقة بكل تفاصيلها الدقيقة إلا أن القلب يلتهب شوقاً وغيرة على الإله المحبوب متحرقاً لأن يلتصق بهذا الإله على نفس مستوى التصاق العذراء به.

ولعل السبب الذي جعل التدبير الإلهي يحجم عن ذكر تلك التفاصيل الدقيقة في الكتاب المقدس هو التأكيد على أن مسيرة كل نفس بشرية، والتي تمثلها العذراء، في علاقتها بالله هي مسيرة سرائرية تنمو داخل مخدع القلب وراء الباب المغلق بعيداً عن الأعين: "أختي العروس جنة مغلقة، عين مقفلة، ينبوع مختوم" (نش٤: ١٢).

إلا أن الكتاب المقدس قصد في عدة مواضع أن يذكر أن التصاق العذراء بالمسيح لم يضمن لها فهماً كاملاً لكل تدابيره. فعندما رأى الرعاة الطفل يسوع وأخبروا بالكلام الذي قيل لهم عنه كانت العذراء "تحفظ جميع هذا الكلام متفكرة به في قلبها" (لو٢: ١٩)؛ وعندما سمعت كلام سمعان الشيخ قيل عنها: "وكان يوسف وأمه يتعجبان مما قيل فيه" (لو٢: ٣٣)؛ وأخيراً عندما رد يسوع على عتاب العذراء عند بقائه في الهيكل بأنه ينبغي أن يكون فيما لأبيه قيل عنها وعن يوسف: "فلم يفهما الكلام الذي قاله لهما... وكانت أمه تحفظ جميع هذه الأمور في قلبها" (لو٢: ٥٠-٥١). وكأن اختبار الروح للوجود الدائم في حضرة الله يسبق اختبار العقل للفهم، ويقين الإيمان يأتي قبل عيان العقل. من ثم تكون الحيرة الروحية واحتجاب الفهم عن بصيرة الروح جزئاً لا يتجزأ من الطريق الروحي. فالإدراك والذكاء الروحيان لا يكونا كاملين منذ اللحظة الأولى للولادة من الروح، لكنهما ينموان مثلما ينمو إدراك وعقل الطفل. وكأن الله يخاطب كل نفس بشرية تتدرج في نموها الروحي قائلاً: "لي أمور كثيرة أيضاً لأقول لكم، ولكن لا تستطيعون أن تحتملوا الآن" (يو١٦: ١٢). والسيد المسيح كان يتكلم مع الجموع "بأمثال وبدون مثل لم يكن يكلمهم" (مت١٣: ٣٤) إلا أنه قال لتلاميذه: "تأتي ساعة حين لا أكلمكم أيضاً بأمثال بل أخبركم عن الآب علانية" (يو١٦: ٢٥). يعني ذلك أن حيرة عدم الفهم هي أمر مرحلي يرتبط بمرحلة الطفولة الروحية التي عبر عليها كل جبابرة الإيمان مثل إبراهيم الذي خرج دون أن يفهم، وأيوب الذي صارع حتى يفهم، والعذراء ويوسف اللذان كان يتعجبان دون أن يفهما، وبولس الذي لخص

تلك الخبرة في قوله: "متحيرين لكن غير يائسين" (٢كو٤:٨). فالاستمرار في السير على الطريق رغم النظر "في مرآة، في لغز" هو برهان إيمان يتوقع بصبر تحقيق الوعد القائل: "لكن حينئذ وجهاً لوجه" (١كو١٣:١٢)